المنازع الأسلوبية وعلاقتها بفن الترسل في العصر العباسي

محمود علي كاظم **زينة عبد جبار محمد**

mahmoodali.k94@gmail.com

الجامعة المستنصرية / كلية الآداب **الجامعة المستنصرية/ كلية التربية**

مستخلص البحث

أخذت الرسائل في العصر العباسي تنحى طريقاً جديداً في التأليف، فظهرت عدة أساليب وطرق لكتابة الرسالة، دراستنا هذه تقتصر على بيان مقدار التواشج بين المنزع الأسلوبي وعلاقته بفن الرسائل في العصر العباسي تحديداً، بالاعتماد على نموذجٍ من الرسائل وتوظيفه في البحث، وتنطلق الأهمية من اصطفاء هذا الموضوع هو كمية الأفكار والتوجهات التي يرتادها الكتّاب في هذا العصر في نسج الرسائل، لا سيمّا تلك التي ترتبط بديوان الانشاء في الدولة العباسية، حيث ظهر عدد ليس بالقليل من الكتّاب يميلون إلى أساليب متنوعة ومختلفة بعض الشيء عن تلك التي كانت تُنظم في العصر الاسلامي وما قبله أو العصر الأموي. فتوصلت الدراسة إلى الكشف عن الأساليب وعلاقتها بالرسائل في فترة حكم العباسيين.

الكلمات المفتاحية: الأسلوبية، الكاتب، الرسائل، العصر العباسيّ.

Stylistic disputes and their relation to the art of epistolary writing in the Abbasid era

Mahmoud Ali Kadhim **Zeina Abdul Jabbar Mohammed**

Abstract

Letters in the Abbasid era began to take a new direction in composition, as several styles and methods of letter writing emerged. This study is limited to clarifying the extent of the interconnection between stylistic tendency and its relationship with the art of letter writing specifically in the Abbasid era, relying on a selected sample of letters and employing it in the research. The significance of choosing this topic lies in the abundance of ideas and trends adopted by writers of that period in crafting letters, especially those related to the *Diwan al-Insha'* (Chancery Office) in the Abbasid state. During this time, a considerable number of writers appeared who tended toward diverse styles that differed somewhat from those used in the Islamic era before it and in the Umayyad era. The study ultimately reveals the stylistic approaches and their relationship to letters during the Abbasid rule.

Keywords: Stylistics, writer, letters, Abbasid era.

المنازع الأسلوبية

إن مصطلح المنازع الأسلوبية يكاد يكون من المصطلحات الغامضة التي تحتاج إلى فهم وتفسير منذ الوهلة الأولى للنظر إلى المصطلح، وهذا ما يجب تسليط الضوء عليه حتى تتضح الرؤية النقدية للمفهوم، ومن المعلوم أن (المنازع الأسلوبية) تُعد من المفاهيم التي لها حداثة في الفكرة والمضمون ، فهناك نوع من التواشج اللفظي يجمع فيه المفهومين، الاتجاه المعتاد من جهة والأسلوب السالك من جهة اخرى، لأن البنية الدلالية لكليهما ترقى لأن تكون ذا تيار نقدي واحد او متلازمة نقدية منفردة تصب في الاتجاه النقدي للمصطلح بوصفه كتلة دلالية متكاملة من ناحيتي الفكرة والمعنى.

أما القيمة المفهومية للفظ (المنزع) فتجد ضآلتها في المعاجم العربية والغربية لا سيما المعاجم المعتمدة منها. فلو رجعنا للفظ (المنزع) في المعاجم العربية لوجدنا أن هذا اللفظ له عدة معاني ومدلولات، لكن الذي يهمنا منها هو المعنى الذي يلائم اللفظ العام لدراستنا (الأسلوبية).

ورد لفظ (مَنزَع) في لسان العرب وهو يحمل معاني كثيرة ومختلفة، ومنها ما وصف بأنه الاتجاه او الرأي، وهو من الفعل الثلاثي (نَزَعَ) و (نزعَ، نزعاً) والجمع (منازع) فقد جاء بكسر الميم وفتحها " فالمِنْزَعةُ والمَنْزَعةُ: ما يرجعُ إليه الرجل من أمره ورأيِه وتدبيره. قال

DOI:

الأصمعي: يقولون والله لَتَعْلَمُنَّ أيُنا أضعفُ مِنزعةً، بكسر الميم، ومَنْزَعةً، بفتحها، أي رأياً وتدبيراً؛ وحكى ابن السكيت... المنزعةُ قوّة عزمِ الرأي والهِمة، ويقال للرجل الجَّيد الرأي، إنه لجيَّد المنزعة " (منظور، ١١١٩، صفحة ٢٣٤) كذلك " مَنْزَعَةُ الرَّجلِ: رأْيُهُ " (فارس، ١٣٨٩، صفحة ٤١٥) . فأنشدَ الصاغانِيُّ للبيدِ:

أنا لبيدٌ ثُمَّ هذِي المنْزَعهْ يا رُبَّ هَيجَا هِي خَيرٌ من دعَهْ (الزبيدي، ١٩٨٥، صفحة ٢٤٤). " وفلان قريب المَنْزَعَةِ، أي قريبُ الهمَّة " (الجوهري، ٢٠٠٩، صفحة ١١٠٣).

فترى فيما ورد أن المنزعَ له علاقة بأسلوب الرجل ورأيه وحسن تدبيره وهو ما ينعكس على المعنى المجازي للفظ المنزع بشكلٍ عام وهذا ما نبحث عنه في أصل دراستنا، كذلك جاء (المنزع) بمعنى المأخذ أو المآخذ وهذا ما أطلق عليه حازم القرطاجني معبراً فيه عن مآخذ الشعراء بقوله : " إن المنازع هي الهيئات الحاصلة عن كيفيات مآخذ الشعراء في أغراضهم، وأنحاء اعتماداتهم فيها، وما يميلون بالكلام نحوه أبدا... نحو منزع عبد الله ابن المعتز في خمرياته، والبحتري في طيفياته " (القرطاجني، ٢٠٠٨، صفحة ٣٢٩). ونحو ذلك من كلام له صلة بميول الشخص عن الشخص الآخر، ومنه ما يلصقه إلى الشبه " نزع إلى الشئ نزاعا ذهب اليه واشتاق أيضا والى أبيه ونحوه أشبهه ولعَلَّ عِرقا نَزَع أي مال بالشَّبه ... (الفيومي، ١٩٨٧، صفحة ٢٢٩)

كما وقد ورد لفظ (المنزع) في احد المعاجم الغربية وهو يعني الطريقة او الكيفية او الغاية وهذا ما وجدناه عند (رينهارت دوزي) في مؤلفه قائلاً: " فالمنزع إذاً طريقة السلوك أو الكيفية... وكان عندهم مشهور المنزع، مضروباً به المثل في برد المقطع (وفي ابن الخطيب: ٢٧) وكان اتقن أهل عصره خطاً وأجلّهم منزعاً ما اكتسب قط شيئاً من متاع الدنيا ... غريب النزع فذ المأخذ اعجوبة من اعاجيب الفتن. أما ما قاله (ابن الخطيب) هنا فإنه يتعلق بأحد المؤلفين وطريقته وأسلوبه في الكتابة أي نزعته فيها " (دوزي، ٢٠٠٠، صفحة ١٩٩).

وهذا ما نريد الوصول إليه وهو مرادنا من أن المنزع قد يكون نابعاً من صلب جوهرة الفكرة المعنيّة وهي: (الطريقة او الإتجاه) ليتوائم هذا المعنى مع فكرة المنزع الأسلوبي أو (المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع) الذي اختاره السجلماسي ٧٣٠هـ عنواناً لكتابه وهو يعني المنهاج او الاتجاه على حدِ وصف محقق الكتاب امجد الطرابلسي.

فلفظ المَنزع إذن يحمل عدة دلالات ووجوه ومعاني ليست بالقليلة، ولكننا نستطيع حصرها وتجييرها تبعاً لما عرضناه لمصطلح او مفهوم الأسلوبية، فتكون عندئذٍ (المنازع الأسلوبية) هي بمثابة الإتجاه او المذهب او المنحى كما يُعبر عنها البعض او الطريقة التي يجري عليها ميول الكاتب ورأيه وأسلوبه فيما ينتجه من إبداع نثري او شعري على حدٍ سواء.

وبذلك تكون المنازع الأسلوبية هي ذاتها الاتجاهات الأسلوبية أو الطرق الأسلوبية او الميول الأسلوبية ولكن بحلة جديدة تتلائم مع الدراسة لتحليل النصوص النثرية لا سيّما الرسائل الفنية التي سنعتمدها في بحثنا هذا إن شاء الله تعالى.

نشأة الأسلوبية:

شهدتْ الساحة النقدية الحديثة ظهور عدة اتجاهات وتيارات نقدية قلّما نعهدها ونراها في العصور السالفة لا سيّما بعد الثورة التجديدية لنظريات النصوص المعاصرة والمناهج النقدية الحديثة (البنيوية وما بعد بنيوية) التي ظهرت في الربع الأول من القرن العشرين، إذ شكّلت البدايات الاولى لظهور هذه التيارات ومنها الأسلوبية عدة توجهات للكثير من النقّاد والأدباء الذين استفادوا من النضج المعرفي والفلسفي لدعم ركائزهم الفكرية والتحليلية من هذا الظهور. ويُنظر لها على أنها مذهب ونظرية تتناول قضايا تتعلق بالأسلوب (فيالا، ٢٠١٢، صفحة ١٢٢).

وبعد الجمود الذي أصاب البلاغة القديمة في خانة الوصف تحديداً، والقصور في المحور المهم الذي غفلت أو تغافلت عنه في مضمون الإبداع الأدبي المرتبط بالجانب النفسي والاجتماعي، أتاح للأسلوبية المجال لتكمل ما بقيت عنده البلاغة والتي فوضت نفسها لأن تكون الوريث الشرعي لها (المطلب، ١٩٩٤، صفحة ٢٥٩).

من ثم أصبح الأدب في ظل هذه الممارسات النقدية لم يكنْ هو الأدب كما كان في صورته الأولى " ولم يعد إبداعاً عبقرياً يعتمد على قدرة المؤلف الخارقة، بل أصبح صيغة كتابية مؤسساتية تحكمها قوانين وشيفرات " (البازعي، ٢٠٠٢، صفحة ٧٤) نافذة تحيط

DOI:

بالنص وتقيده ولا تسمح بأن يكون الإبداع مقتصراً على هذه الطبقة فحسب، بل يشمل جميع مستويات الفئات التي تستطيع أن تنجز عملاً أدبياً له صلة بالصيغ الكتابية الحديثة.

وبعد البحث عن أصل أو الجذور الأولى لنشأة مصطلح الأسلوب أو الأسلوبية فنجدها في المدرسة الفرنسية الذي كان (شارل بالي ١٨٥٧-١٩٣١) القطب الأساسي فيها، وهو خليفة عالم اللغة واللسانيات (فردينان دي سوسير) الذي تولى بعده كرسي علم اللغة العام في جامعة جنيف، وقد نشر كتابه الأول الذي أطلق عليه (بحث في الأسلوب الفرنسي ١٩٠٢)، ثم بعد ذلك اتبعه بعدة دراسات مستفيضة ومطولة، تطبيقية ونظرية أسس بها علم الأسلوب (فضل، علم الأسلوب مبادئه واجراءاته، ١٩٩٨، صفحة ١٨).

وابتداءً من العام المنصرم تحديداً بدأ الاهتمام بالدراسات الأسلوبية يتزايد شيئاً فشيئاً، مقترباً من المعطيات العلمية الألسنية، وأخذ يتقاطع هذا العلم مع العلوم الأخرى كالبلاغة وفقه اللغة والنقد الأدبي وعلم العلامات، وقد ظهرت اتجاهات معرفية وفكرية متعددة وأساليب متمايزة تختلف من باحثٍ إلى آخر ثبّتت شرعية البحث الأسلوبي وأهليته في أن يكون علماً راسخاً ضمن الحقول البنيوية التي تصيّر علم الأسلوب وأهميته من خلال علم اللغة العام (وغليسي، ٢٠٠٧، صفحة ٧٦).

ومن هذه المحصلة نستطيع أن نخرج إلى نتيجة تبين لنا ما هو مفهوم الأسلوب، أو كيف نظرَ علماء اللغة إلى هذا العلم، فنرى أن علم الأسلوب كما يرى شارل بالي بأنه " العلم الذي يدرس وقائع التعبير اللغوي من ناحية محتواها العاطفي؛ أي التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة، وواقع اللغة عبر هذه الحساسية " (فضل، علم الأسلوب مبادئه واجراءاته، ١٩٩٨، صفحة ١٨).

وبذلك ترى أن مفهوم الأسلوب بالنسبة لبالي يرتبط بالعاطفة والتعبير عنها وهذا ما يجعل موضوع الأسلوبية محل تحليل وعرض للنصوص التي تغلب عليها العاطفة عبر دراسة الوقائع التعبيرية للغة والانسجام مع المعنى الذي تؤديه الرسالة المقصودة من النص، بالوقت الذي يرى الألماني (ليو سبتسر) أن التحليل البنيوي للأسلوب أكثر تشبثاً بالموضوعية وأقل اعتماداً على الحدس، وبالتالي فهو يتحكم بما يراه مناسباً لما قد يصدره القارىء من حكم نقدي موضوعي ينسجم مع الطبيعة التعبيرية للنص (عيّاد ش.، ١٩٨٥، صفحة ١٦).

وتجد عبد السلام المسدّي يُفرق بينه وبين الأسلوبية فهو يرى أن الأسلوب ذو مدلولٍ إنساني ذاتيٍّ وهو نسبي، ولاحقته (يّة) فتختص بالبعد العلمي العقليّ وبالتالي الموضوعيّ منه (المسدي، ٢٠٠٦، صفحة ٣١). وبهذا فالأسلوب يدل على توجه الأنسان وميوله بعيداً عن ارتباطه بمجموعة، وهو نسبي يختلف من شخصٍ إلى آخر يزيد أو ينقص، والأسلوبية تختص بما يراه الأنسان بالبعد العقلي المنطقي الذي ينتج عنه الحقيقة.

وهناك من يرى أن الأسلوبَ لا يبرح من كونه الأنسان نفسه ولكن بمعنى أعمق ودلالة اشمل من ترجمة المفهوم، فهو يتعكز على ما يراه مناسباً في فن القول وتشكيل الكلام ويحتاج إلى منْ يجيد استعمال المعارف والعلوم وصهرها بقالبٍ تعبيري تسود فيه بلاغة التحضير للمعنى الذي يريد إيصاله المتكلم.

وبذلك تكون الفرادة لإختيار المعاني والألفاظ والشعور والتفكير بها للشخص نفسه ولا يمكن الإضافة عليها او التعديل، وهذا ما أكّد عليه الناقد الفرنسي جورج بوفون ١٧٨٨م في معرض حديثه عن الأسلوب فهو يرى " أن المعارف والمعطيات والاكتشافات تطير بسهولة وتنتقل، ويمكن أن تفوز بها أيدٍ تستعملها بطريقة أكثر مهارة وهذه الأشياء هي أشياء خارج الرجل؛ أما الأسلوب فهو الرجل ذاته " الذي يتمتع بهذه الخصوصية والتي تميزه عن الآخرين من اقرانه.

وهناك من يرى أن " الأسلوب هو ابتعاد ecart عن الكلام المألوف والمستعمل، فقولنا سال ماء الوادي قول مألوف، أما قولنا " سال الوادي " فابتعاد عن المألوف وخروج عن المستعمل، وبالتالي نحن تجاه ظاهرة أسلوبية تُعرف بالابتعاد " (ربابعة، ٢٠٠٣، صفحة ٤٥). عن أي شيء مألوف او معروف، وتركنُ إلى ما تراه جديداً ومشوقاً محبباً للنفس وغير ما ألفته الناس في ذاكرتها عِبر الإنزياح المعنوي واللفظي للكلام الذي جاء به جان كوهين.

وحددَ اللسانيون الفرنسيون موضوع علم الأسلوبية على ضوء ما وجدوه في الدراسات اللسانية ورأوا أنه دراسة التعبير اللساني وكل ما يمكن أن يصدر عن اللسان في تكوين الخطاب سواء أكان ملفوظاً أم مكتوباً، إذ كلاهما يتم بوساطة متواليات صوتية تتحد لتنتج لنا الكلام والذي بدورهِ يختلف من شخصٍ لآخر عبر الطريقة المستخدمة في تأديته (عياشي، ٢٠٠٩، صفحة ٣٥).

DOI:

أما صورة الأسلوبيون الإنجليز قد تختلف بعض الشيء عن الفرنسيين، فهم جذبوا الدراسة الأسلوبية أكثر إلى واقع الحياة وهو ما لا يستطيع بالي وتلاميذه أن يفعلوه إلا على مستوى الفكر والاستعمال الفردي كما يزعمون (عيّاد ش.، علم الأسلوب مدخل ومبادئ، ٢٠١٣، صفحة ١٤٨).

فالأسلوبية التي تحدث عنها النقاد في العصر الحديث تقترب كثيراً من الرؤى النقدية الحديثة التي اتحدت مع النظريات الحداثوية لتصف لنا الحال بالنسبة للميول التي يكوّنها منتج النص، ومدى تقبل وتفاعل المتلقيّن مع المنتَج الذي يُكتب بالطريقة التي يراها المبدع مناسبة للمرحلة التي هو فيها؛ لأن الأسلوب يهتم باللغة الأدبية وحدها وبعطائها التعبيري من أجل غايات أدبية بحتة وهذه الغايات تتطور مع تطور الأليات والمناهج المستخدمة في طرق النقد، فالألوان مثلاً تُستخدم كي تقنع القارئ وتنال اعجابه بإبراز شكل أكثر حدة من الآخر وكل منها له ذوقه الخاص الذي يُعبَّر عنه، كما ذلك في الكتابة أيضاً التي تختلف مساراتها وأدواتها تبعاً لأساليب معينة يتخذها الكاتب في إنشاء نصه والتعبير عن خلجات نفسه المكنونة في الداخل لترسيخ الطابع الذي ينتمي إليه الكاتب (جيرو، ١٩٩٤، صفحة ١٧).

وللوقوف قليلاً على نشأة الأسلوب (الأسلوبية) عند العرب باعتبارها مصطلحاً قاراً وثابتاً، فثمةَ سؤالٌ هنا نطرحه وهو هل مفهوم الأسلوب حديث الظهور عند الغرب أم هناك ارهاصات عربيـة شكّلت هذا المصطلح؟

الإجابة نعم اللبنة الأساسية لتنشأة المصطلح بدأت بوادرها عند النقاد العرب فالجاحظ (٢٥٥هـ)، وابن قتيبة (٢٧٦هـ)، والخطابي (٣٨٨هـ)، والباقلاني (٤٠٣هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، والزمخشري (٥٣٨هـ)، والقرطاجني (٦٨٤هـ) قد تعرضوا للمفهوم وفصلوا القول فيه لكن من وجهات نظر مختلفة، فمنهم منْ ربطه بنظرية النظم، ومنهم من جعله مقروناً بافتنان الكلام من أساليب العرب، وآخر من ترجمها الى المذهب او الطريقة للكلام، وهناك منْ اكتفى بالمبدأ البلاغي الذي يرى (أن لكل مقامٍ مقال)، ورأي يقول بالخواص التعبيرية للأسلوب النصي للكلام، وكلٌ له مذهبه في النظر إلى المصطلح (عيّاد ش.، علم الأسلوب مدخل ومبادئ، ٢٠١٣، صفحة ١٢٣).

فكل الذين تم ذكرهم عبّروا عن المفهوم بالوجهة التي يرونها تتناسب مع أفكارهم والمرحلة التي هم فيها، لكن الأسلوب لم يبق ساكناً لهذا الحدّ، بل راح ليشقَّ طريقه متجهاً نحو الغرب ليعود بحلةٍ جديدةٍ ودلالات متعددة اكتسبها من مدارسهم وطبيعة تفكيرهم ونظرتهم إلى المفهوم بروح فلسفية وتأملية تعكس التطور والتجدد الحاصل في حقول الدراسات الأسلوبية، فاصبح الأسلوب يشكل الدعامة الرئيسة للكلام الذي يتكون من أمورٍ ثلاث هي (المخاطِب والمخاطَب والخطاب) وهذه الدائرة هي الحلقة المعنية التي صارت تُعنى فيما بعد بتشكيل الأسلوب الحديث وتطلعاته (سليمان، ٢٠٠٤، صفحة ١١).

أما المستويات التي تنهجها الأسلوبية لتحليل النصوص الأدبية فهي :

- المستوى الصوتي (الإيقاعي)
- المستوى التركيبي (النحوي)
- المستوى الدلالي (البلاغي)

بهذه المستويات الثلاث تدخل البنية التشريحية للنص حيز التطبيق وفق المعطيات المتواجدة في الكلام وما تمتلكه من إشارات ورموز مفتاحية للدخول.

فن الترسل في العصر العباسي:

شهِدَ العصر العباسي العديد من التغيرات التي حدثت إبان سيطرة بني العباس على الخلافة عام (١٣٢- ٦٥٦ هـ)، ففي هذه الفترة تحديداً بدأت الحضارة العباسية تشق طريقها نحو التطور والازدهار والانفتاح في شتى مجالات الحياة الحضارية والعمرانية والثقافية والأدبية وحتى الفلسفية – بالأخص في فترة حكم هارون الرشيد – وقد اجتاحت الثورة العلمية كل شيء واستطاعت نشر ثقافتها ومواكبة التطور والتقدم في جميع المستويات، لا سيّما في حقل الكتابة والتأليف، إذ برز عدد كبير من الشعراء والكتّاب في هذا العصر وفق ثقافات وأيديولوجيات مختلفة.

DOI:

وفي هذه الفترة تحديداً بلغت ملامح الرقة والعذوبة والسلاسة والترف اقصى مظاهرها لأن العصر العباسي كما يرى البعض " ذو أدبٍ حضري، مترف، مثقف، هادئ، مستقر، يعتمد على العقل المفكر، والعلم الكثير، والمزاج الرقيق، والحياة الخصبة الناعمة، والبيئة الاجتماعية المنظمة، ففاض الأدب بالمذاهب الدينية والفلسفية " (الشايب، ١٩٩١، صفحة ١٢٤). فأضحى ينافس العلوم الأخرى عبر التطور الملحوظ الذي ساد في عهد العباسيين.

ويُعدُّ العصر العباسي كما يرى النقاد من العصور الذهبية للكتابة العربية، في شتى المجالات النثرية (المقامات، الرسائل، القصص، التوقيعات)، ومن هذا فقد أخذ فن الترسل تحديداً مكانة كبيرة في نفوس الأدباء، باعتباره فن قديم وله أصل من فنون النثر، ويتمتع بأفضلية مقارنةً بالفنون الأخرى، فحُضيت الرسالة بمكانة مرموقة في داخل الناس؛ كونها ارتبطت بحياتهم اليومية وتسيير أمورهم وشؤونهم الداخلية والخارجية (بيوض، ١٩٩٦، صفحة ٦).

وقد عالجتْ موضوعة الرسائل الكثير من القضايا التي كانت سائدة في العصر العباسي آنذاك، فهناك الرسائل العلمية التي اهتمت بالعلوم الطبية والعلوم الصرفة، والرسائل الدينية التي هدفت إلى تعاليم الأسلام، والرسائل التاريخية التي سلّطتْ الضوء على التاريخ، والرسائل الأدبية التي تنظر في الأدب، والرسائل الديوانية والإخوانية التي اخذت الجزء الأكبر من هذا الفن وهي تُعنى بإدارة أساليب الحكم داخل الخلافة وتنظيم امور الدولة من جهة، والتحايا والتهاني بين الخلفاء والأدباء بالنسبة للإخوانية وغيرها من الأمور من جهةٍ أخرى، فالرسائل تناولت كل ما يطرأ على الحياة بشتى نواحيها ولم تترك شيئاً دون معالجةٍ او تفصيل.

والجدير بالذكر هنا أن العصر العباسي الأول الذي ينتهي بمقتل الخليفة (المتوكل على الله) سنة ٢٤٧هـ كان يمثل الذروة او الفترة اللامعة لفن الترسل؛ بسبب الاهتمام الذي لاقاه في هذه المدة، وظهور اسماء كبيرة تكتب في هذا الفن، كعبد الله بن المقفع (١٤٢هـ) وسهل بن هارون (٢١٥هـ) والحسن بن وهب (٢٥٠هـ) واحمد بن يوسف الكاتب الذي كان رئيساً لـ (ديوان الرسائل) في عهد المأمون وغيرهم كثير، فضلاً عن الأسلوب المتوازن الذي لا زال متحققاً عند أغلب الكتّاب كما يرى البعض، فالمعيار الأساس للكتابة والتأليف في هذا المجال قد استحسنه النقاد واثنوا عليه من خلال ما وجدوه في أفكارهم وأساليبهم (المقدسي، ١٩٣٥، صفحة ١٤٠).

وظهر في هذا العصر أيضاً بعض كُتّاب الرسائل المتميزين الذين كانت لهم بصمة واضحة في اتقان استعمال فن الترسل، وبلغت نتاجاتهم وكتاباتهم اقصى بقاع الأرض، لما فيها من رونقٍ وديباجة وصياغة وحسنٍ، تُنازع الشعر احياناً وتغلبه احياناً اخرى في قصر العبارة ووفرة المعنى وتجديد الموضوع، حتى أخذ بعض الشعراء يميلون إلى هذا الفن ويؤلفون فيه، لطبيعة الظرف والحاجة الماسة إليه في ذلك الوقت آنذاك.

وبرزَ ما يسمى بالشعراء الكتّاب الذين جمعوا بين بلاغة النثر وجمال الشعر، وكانت لهم مكانة كبيرة عند النقادِ أمثال الجاحظ الذي قالَ عنهم " طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفتُ على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلَّق بالأيام والأنساب، فلم اظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتّاب: كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزيات " (القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١٩٥٥، صفحة ١٠٥).

ويردف الجاحظَ ابن رشيق القيرواني بقوله في شأنهم ايضاً : " والكتّاب أرق الناسَ في الشعرِ طبعاً، وأملحهم تصنيعاً، وأحلاهم ألفاظاً، وألطفهم معاني، وأقدرهم على التصرف، وأبعدهم عن التكلف. وقد قيل الكتّاب دَهاقينُ الكلام " (القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١٩٥٥، صفحة ١٠٦). وهذا ما يعكس الثقافة الفكرية والأدبية التي كان يتمتع بها كتّاب الرسائل، وأصبح فن الترسل يمثل الحالة الافتراضية القصوى للأديب في العصر العباسيّ.

DOI:

فظهور هذه الكوكبة من نثراء الرسائل وفي هذا العصر تحديداً اعطى مكانة أدبية جليلة للناس تجاه الكتّاب، واصبحت الرسالة هي الحلقة الوحيدة والركيزة الأساسية للتواصل بين الناس والخلفاء والملوك والقوّاد الذين يقنطون بلاداً اخرى، وبقيت تمثل الجزء الأهم في تنظيم أمور الدولة لما تتضمنه من مواثيق وعهود وكتب العزل والتعيين والتولية للقادة والولاة على الأمصار والمدن.

واقترنت الرسائل كثيراً بهذا الطبقة الحاكمة التي تتولى تسيّير شؤون الحكم والدولة، حيث كان الخلفاء يختارون من الكتّاب ما يرونه عارفاً متمكناً ومجيداً مستطيعاً من اللغة والأدب والفكر والحنكة والأسلوب حتى يتولى ديوان الرسائل، لأنه بمثابة الدعامة الرئيسة الخفية والعلنية لقوة الدولة وأركانها.

أما علاقة المنازع الأسلوبية بفن الرسائل في العصر العباسي، فقد أخذت ابعاداً مختلفة ومسارات مفترقة، فكل فئةٍ من الكتّاب كان لها أسلوباً خاصاً بها تتميز به عن غيرها وتتفاوت، فهناك اصحاب الطبع أوالصنعة مثلاً يختلفون عن اصحاب مدرسة الترسل في الكتابة والتأليف، متخذين بذلك اتجاهاً وأسلوباً مغايراً عن احدهما الآخر، فالطبقة الأولى التي تمثل ابن العميد وبديع الزمان قد " غلبت عليها الصنعة فلا يسيل قلمه إلا في إطار من الزخرف، وعلى ديباجة من حرير، إذا تخيل أبدع، وإن صور أمتع، وإن سجعه فدونه سجع الحمام " (حجاب، بلاغة الكتّاب في العصر العباسي، ١٩٨٦، صفحة ٣٤).

أما الطبقة التي تمثل ابن المقفع وسهل بن هارون وغيره، فقد كانوا يرسلون القول على طبيعته دون تكلفٍ وعناء سواء أكان موجزاً أم مطنباً، مرسلاً كان أم مسجعاً أم موشى بصور الخيال والألفاظ المزخرفة والمونقة فكله سيّان بالنسبة لهم (حجاب، بلاغة الكتّاب في العصر العباسي، ١٩٨٦، صفحة ٣٤). وكذلك الاختلاف الحاصل بين الكتّاب أنفسهم، فكلٌ اختار طريقته فيما يراها نافعة ومجدية في الصياغة والأسلوب والجمال باستخدام سحر البلاغة والبيان.

وقد ذكرت المصادر والكتب أن المترسلين يحملون سمات مختلفة وأساليب معينة في تجميع أفكارهم وبثها في رسائِلهم، تبعاً لثقافاتهم وبيئاتهم ومعارِفهم في نسجِ الخيال واقتدار الوجدان في تشكيل الصور الدلالية والإيحائية عِبر استخدام الزخارف اللفظية والمعاني البديعية الخاصة لكل عصر، فمثلاً هناك رسائل أو كتب في التحميد ومنها في التعزية وأخرى في التهاني وغيرها، كل هذه العنوانات تندرج ضمن ما يسمى بالمناسبة أو الملائمة، فلا يجوز مثلاً استخدام الكاتب ألفاظ التعزية ويجيزها في التهاني، أو الجمع بين السياسة وتلك التي تجري على الأخوانية مثلاً، فكلٌ له ضابط يضبطه من حيث الشكل والمضمون والمعنى، الذي يتشابه أحياناً بمفتتح الرسائل كأن تبدأ الرسالة بالتحميد أو ذكر آية قرأنية تقوم مقام المفتتح.

أنموذجاً تطبيقياً من الرسائل

هنالك الكثير من الرسائل التي كُتبت في العصر العباسي، وبالتحديد تلك التي أُستخدمت لأغراض السياسة وتنظيم شؤون الحكم في الأمصار والمدن، ورفع الحيف والتظلم عن المسلمين، والعزل والتولية، ومن أمثلتها ما كتبهُ الخليفة ابو جعفر المنصور إلى عامله في حضرموت، ناهراً إياه من سوء أفعاله بعدما وصله البريد أنه يُكثر الخروج في طلب الصيد ببزاةٍ وكلاب قد أعدّها، فعزله وكتب إليه:

" **ثكلَتكَ أمُّكَ، وعِدَمتك عشيرتُك، ما هذه العُدَّةُ التي أعدَدتَها للنِّكاية في الوحش؟ إنّا إنما استكفيناكَ أمورَ المسلمين، ولمْ نستكفِك أمورَ الوحش، سلِّم ما كُنتَ تَلي من عملِنا إلى فلان بن فلان، والحقْ بأهلِك ملوما مَدْحُورا** " (الطبري، ١١١٩، صفحة ١٢٥).

لو أمعنا النظر في هذه الرسالة وما ورائها من دلالات ومعاني مستفيضة وبعبارات موجزة مختصرة، لتبين أن أسلوب المرسل لم يكنْ أسلوباً بسيطاً، بل يقع في مقدمته ما يجده متحققاً في متلقي النص وهو المخاطَب، فعن الجانب أو المستوى التركيبي للجمل، فجاءت مترابطة ومتصلة بشكلٍ أفقي بعضها يأخذ برقاب بعض، فترى المنزع متحققاً منذ بداية كلامه، وصب الغضب على عامله،

DOI:

والجملتين الأولتين تبين ذلك المعنى فـ (ثكلتكَ أُمَك، وعدِمتك عشريتكَ) جملتين متصلتين ومتساويتين من حيث اللفظ، أما دلالتهما فتختلف كثيراً، فالكاتب قد أعار انتباه المخاطَب من خلال هذين الجملتين لِما فيهما من دلالة اعتباطية تكمل احدهما الآخر، فاستخدم فعلي (الثكل، والاعدام) للإحاطة والشمول في التنبيه على ما اقترفه من خطأ لا يُغتفر، فجمع عاطفة الأم من جهة واجتماعية العشيرة من جهةٍ أخرى، ليخبره بأن قد خسر على الصعيدين الخاص والعام، وفقد مكانته نهائياً بين قومه، وهذا أقصى ما قد يتلقاه المرء من جراء فعله المستكره من العقوبة.

فضلاً عن توظيف أساليب الأفعال والأزمنة الثلاث جميعها، فبدأ بصيغة الماضي ثم انتقل إلى المستقبل أو صيغة المضارع، ثم رجع إلى أسلوب الماضي (إنما استكفيناكَ...) ثم أستحضر المستقبل، حتى انتهى إلى توظيف فعل الأمر من خلال الأفعال (سلِّم، الحِق) وسبقهما بزمنٍ ماضٍ أعقبه مضـارع (كُنتَ، تَلي). فتلاحظ المرسل قد استعمل ثمانية أفعال منها اربعةً للماضي واثنان للمضارع ومثله الأمر، إلى جانب التحكم في طول الجملة وقصرها التي أضفت الدلالة المعنوية لتراتبية الجمل، فالجملتين الأوليتين كانتا محدودتي الطول، أما ما تلاهما من جملٍ ففيهنَّ من الطول ما يسبق الجملتين، ونتج هذا من حيث الموقف الذي هو فيه، وهو في أوج غضبه، مما جعله مستخدماً لغة الوعيد والتهديد، فدلالة الوقع الأول لصيغة الماضي المستخدمة بدلاً من صيغة المضارع أو الطلب تفيد تحقق الوقوع، وكأن الأمر قد وقع فعلاً لبيان خطورة الموقف وهول الفعل، وهي قاطعة وحاسمة لموقفه تجاه عامله، فالفعل الذي بدأ فيه وهو (الثكل) له دلالتان وقعيتان على أسماع المخاطَب، الأولى ظاهرية وهو الدعاء على الشخص بالموت، والثانية مخفية وهي قد تكون المرجوة وتعني التعجب أو الإنكار للفضل أو الحث على الانتباه، وهذا ما كان قد يقصده الكاتب، فضلاً عن جريان هذه العبارة على ألسنة العرب كثيراً حينذاك. فالخبر هنا خرج لمعنى الإنشاء وهو يفيد الدعاء على المخاطَب بأن تفقده أمه وتعدمه قبيلته جراء عظم الخطأ الذي ارتكبه بحق قومه أو غفلته عمّا آلت إليه الأمور إلى الحد الغير متوقع.

أما من حيث التقديم والتأخير فقد جاءت الرتب في الجمل على غير ما تجري، فترى في الجملة الأولى من الرسالة التقديم والتأخير فيها بادٍ، فتقدم المفعول (الكاف) وتأخر الفاعل (أُم) وهو تقديم وجوبي، والأمر ذاته قد تكرر في الجملة الثانية، وهذا ما يضفي على الجمل من القوة والمتانة، لأن الخرق والإنزياح هو من يعطي المعنى رونقاً وديباجة على عكس الكلام الذي يجري على العادة دون تغيير في الرتب ودون اختلاف.

حتى السؤال الذي جاء في منتصف الرسالة كان يدل على السخرية من أفعاله، فترى اللغة طوع بنانه لم تفترقْ عن اللفظ إطلاقاً، وهذا ما يميّز أسلوب الكاتب، وما يمتلكه من سلطة على النص باعتباره الخليفة ودونه فعامله، وهذا الأسلوب من الرصف الرتبي للكلام قد نزع إليه المرسل ليبلو بلاءً حسناً في نفوس اتباعه.

أما من حيث المحور البلاغي، فهناك إيجاز شديد وتوكيد على الفعل الذي وقع من خلال الألفاظ المستخدمة، فنجد توكيداً مضاعفاً في قوله: (إنَّا إنما استكفَيناك أمورَ المسلمين...)، فخرج المعنى بقوة وشدة وحزم؛ لأن التوكيد على تسيير أمور المسلمين، هو ذاته الذي كُلفت به لا غيره من الأمور، فلغة التعضيم لأستخدام أداتي توكيد في سياقٍ وجملةٍ واحدة ما هو إلا أمر خطير قد يلجأ إليه الكاتب في حالات مستثناة، وهذا يضيف إلى حصول أمر ليس بالهين عند الخليفة، وعواقبه بلا شك جسيمة على المقابل ومرتقبة، وهذا ما بعثه في آخر الرسالة قائلاً: (سلِّم ما كُنتَ تَلي مِن عملنا إلى فُلان بن فلان، والْحقْ بأهلك ملوما مَدْحُورا)، فجاءت النتيجة مماثلة ومطابقة مع الألفاظ وسبقت كل التخمينات التي قد تنال من كتاب الخليفة في عزل عامله في حضرَموت.

ومن الناحية الإيقاعية، فالأصوات جاءت ملغومة بالمعاني، فكل حرفٍ كان يستهدف معناً يجري به، فاستخدام المرسل للحروف الشديدة والمهموسة بالوقت نفسه اعطت انطباعاً موثراً للمخاطَب، فالحروف التي تمثل الهمس (الكاف، السين، التاء، الثاء، الحاء) قد جاءت منساقة وهي لا تحتاج إلى حركة الأوتار الصوتية كما في الأصوات المجهورة (الألف، اللام، الميم، النون، الشين، الواو) التي

DOI:

تكررت لأكثر من مرة في الرسالة، والتي تحتاج إلى حبس النفس وقوة المخرج ليخرج الصوت برنينٍ واهتزازٍ معاً، فحركة الألفاظ مع الأصوات جاءت تراتبية تتراقص فيما بينها تارةً وتتقارب تارةً أخرى، أنطلقت من الهمس الذي فيه نوع من اللين والطراوة، إلى الشدة والقوة والتمكين والقسوة والصلابة في الجهر والهجاء، وهذا ما ينبغي الوقوف عليه وبيانه، إذ تلحظ أن الكلام المكتوب كأنه كلام مسموع وليد اللحظة، وهذا ما عهد عليه أغلب كتّاب العرب الفصحاء. فتكرار الحروف وتعاقبها أضفى على المعنى تأثيراً دلالياً مباشراً بطريقةٍ أو بأخرى.

أما على مستوى الكلمة، فتكررت كلمات في الرسالة ولكن بصيغ مختلفة ومشتقة، فهناك مثلاً:

العدة ← أعددْتَها

إنَّا ← إنّما

استكفينَاك ← نستكْفِك

وهناك كلمات تكررت بعينها وهي:

في الوحش ← أمور الوحش

أمور المسلمين ← أمور الوحش

فُلان ← فلان

هذه التكرارت التي وردت في الرسالة لا شك لها من المقدار ما يجعلها تتميز عن الألفاظ الأخرى المستخدمة، كما أن هذا النوع من الأساليب له أسبابه ومؤداه في نفسية الكاتب، فلا يخرج عبثاً ما لم يكن هناك حدثاً جليلاً واقعاً بالفعل، ويحتاج إلى مَنْ يتداركه قبل فوات الآوان، فخرجت الكلمات متناثرة لترسم العقوبة والوعيد التي طالما بقيت دون ردعٍ وزجر، لتقع على الرجل القائم بأعماله دون هوان وهوادة، فهذه التكرارات ساهمت بشكلٍ أو بآخر في تدعيم المعنى وتقوية الدلالة في الرسالة واستطاعتْ تثبيت أركان الألفاظ كلٍ في محله.

DOI:

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

البازعي, د .م-.د .(2002) .*دليل الناقد الأدبي* .(3 ed.)المغرب :الدار البيضاء -المغرب.

الجوهري .(2009) .*معجم الصحاح* .القاهرة :دار الحديث.

الزبيدي .(1985) .*تاج العروس* (.ح .مصطفى (.Ed ,الكويت :مطبعة حكومة الكويت.

الشايب, ا .(1991) .*الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية* .(8 ed.)مصر :مكتبة النهضة المصرية.

الطبري, م .ب .(1119) .*تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك* (.(4 ed.)ا .محمد ابو الفضل (.Trans ,القاهرة :دار المعارف.

الفيومي .(1987) .*المصباح المنير* .لبنان :مكتبة لبنان.

القرطاجني .(2008) .*منهاج البلغاء وسراج الأدباء* (.(3 ed.)ا .محمد الحبيب (.Ed ,تونس :الدار العربية للكتاب.

القيرواني, ا .ر .(1955) .*العمدة في محاسن الشعر وآدابه* (.(2 ed.)ع .محمد محي الدين (.Trans ,مصر :مطبعة السعادة بمصر.

القيرواني, ا .ر .(1955) .*العمدة في محاسن الشعر وآدابه* (.(2 ed.)ع .محمد محي الدين (.Ed ,مصر :مطبعة السعادة مصر.

المسدي, د .ع .(2006) .*الأسلوبية والأسلوب* .(5 ed.)تونس :دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع.

المطلب, د .م .(1994) .*البلاغة والأسلوبية* .(1 ed.)القاهرة :الشركة المصرية العالمية للنشر.

المقدسي, ا .(1935) .*تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي* .بيروت :الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية وقفية ثيودور.

بوفون, ج .(1753, 1 6) .*Discours Sur Le Style* .فرنسا.

بيوض, د .ح .(1996) .*الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول* .سوريا -دمشق :منشورات وزارة الثقافة.

جيرو, ب .(1994) .*الأسلوبية* .(2 ed.)حلب :مركز الانماء الحضاري.

حجاب, د .م .(1986) .*بلاغة الكتّاب في العصر العباسي* .(2 ed.)الرياض :ملكية الطالب الجامعي.

حجاب, د .م .(1986) .*بلاغة الكتّاب في العصر العباسي* .(2 ed.)الرياض :مكتبة الطالب الجامعي.

دوزي, ر .(2000) .*تكملة المعاجم العربية* (.(1 ed.)ا .جمال (.Ed ,بغداد :دار الشؤون الثقافية.

ربابعة, د .م .(2003) .*الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها* .(1 ed.)الاردن :دار الكندي للنشر والتوزيع.

سليمان, د .ف .(2004) .*الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية* .القاهرة :مكتبة الآداب.

عيّاد, ش .(2013) .*علم الأسلوب مدخل ومبادئ* .(1 ed.)لبنان :التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

عيّاد, ش .(2013) .*علم الأسلوب مدخل ومبادئ* .(1 ed.)لبنان :التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

عيّاد, ش .م .(1985) .*إتجاهات البحث الأسلوبي* .القاهرة :دار العلوم للطباعة والنشر.

عياشي, د .م .(2009) .*الأسلوبية وتحليل الخطاب* .دمشق :دار المحبة.

فارس, ا .(1389) .*معجم مقاييس اللغة* (.(2 ed.)م .عبد السلام (.Ed ,مصر :مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده.

فضل, د .ص .(1998) .*علم الأسلوب مبادئه واجراءاته* .(1 ed.)القاهرة :دار الشروق.

فضل, د .ص .(1998) .*علم الأسلوب مبادئه واجراءاته* .(1 ed.)القاهرة :دار الشروق.

فيالا, ب .آ-.د-.ج-.آ .(2012) .*معجم المصطلحات الأدبية* (.ح .د .محمد (.Ed ,المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

منظور, ا .(1119) .*لسان العرب* .(1 ed.)القاهرة :دار المعارف.

وغليسي, د .ي .(2007) .*مناهج النقد الأدبي* .(1 ed.)الجزائر :الجسور للنشر والتوزيع.

.

DOI:

References

Al-Bazai, M. (2002). *The Literary Critic's Guide* (3rd ed.). Casablanca, Morocco.
Al-Fayyumi. (1987). *Al-Misbah al-Munir*. Beirut: Lebanon Library.
Al-Jawhari. (2009). *Al-Sihah Dictionary*. Cairo: Dar Al-Hadith.
Al-Maqdisi. (1935). *The Development of Prose Styles in Arabic Literature*. Beirut: American University of Beirut.
Al-Masadi, A. (2006). *Stylistics and Style* (5th ed.). Tunis: Dar Ouya.
Al-Muttalib, M. (1994). *Rhetoric and Stylistics*. Cairo: Egyptian International Publishing Company.
Al-Qartajanni. (2008). *Minhaj al-Bulagha wa Siraj al-Udaba* (3rd ed.). Tunis: Arab Book House.
Al-Shayeb, A. (1991). *Style: A Rhetorical Analytical Study* (8th ed.). Cairo: Nahdat Misr Library.
Al-Tabari, M. (n.d.). *History of Al-Tabari (History of Prophets and Kings)* (Trans. Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim). Cairo: Dar al-Ma'arif.
Al-Zabidi. (1985). *Taj al-'Arus* (Ed. Mustafa Hijazi). Kuwait: Government Press.
Ayashi, M. (2009). *Stylistics and Discourse Analysis*. Damascus: Dar Al-Mahabba.
Ayyad, S. (2013). *The Science of Style: Introduction and Principles*. Beirut: Al-Tanweer Publishing.
Ayyad, S. M. (1985). *Trends in Stylistic Research*. Cairo: Dar Al-'Ulum.
Bayoud, M. H. (1996). *Political Letters in the Early Abbasid Era*. Damascus: Ministry of Culture.
Dozy, R. (2000). *Supplement to Arabic Dictionaries*. Baghdad: Cultural Affairs House.
Fadl, S. (1998). *The Science of Style: Principles and Procedures*. Cairo: Dar Al-Shorouk.
Girault, P. (1994). *Stylistics* (2nd ed.). Aleppo: Center for Cultural Development.
Hijab, M. (1986). *The Rhetoric of Writers in the Abbasid Era* (2nd ed.). Riyadh: University Student Library.
Ibn Faris. (n.d.). *Maqayis al-Lughah (Measures of Language)*. Cairo: Mustafa al-Babi al-Halabi Library.
Ibn Manzur. (n.d.). *Lisan al-'Arab*. Cairo: Dar al-Ma'arif.
Ibn Rashiq Al-Qayrawani. (1955). *Al-'Umda fi Mahasin al-Shi'r wa Adabih* (2nd ed.). Cairo: Al-Sa'ada Press.
Rababa'ah, M. (2003). *Stylistics: Concepts and Manifestations*. Jordan: Dar Al-Kindi.
Suleiman, F. (2004). *Stylistics: A Theoretical Introduction and Applied Study*. Cairo: Library of Arts.
The Holy Qur'an
Viala et al. (2012). *Dictionary of Literary Terms*.
Waghilisi, Y. (2007). *Methods of Literary Criticism*. Algeria: Al-Jusoor Publishing.

DOI: